صورة الفخر الأدبي عند ابن نباتة الـــمصري

حسن سرباز
أستاذ مساعد بـــجامعة كردستان
سُعدى أسعدي
خرّيـــجة في مرحلة الـــماجستير مِن جامعة كردستان
حسام الدين خاكپور*
طالب الدكتوراه بـــجامعة طهران
(٨٨-٧١)
تاريخ الاستلام: ٩١/١١/٢٣؛ تاريخ القبول: ٩٢/٠٢/٠٤

الـــملخّص
الفخر من الفنون الشعريّة الشائعة يتغنّى فيه الشّاعر بخصاله أو بخلال قومه، وقد تطرّق إليه معظم الشّعراء في العصور الـــمختلفة من تاريخ الأدب العربي. وللفخر أنواع مـــختلفة: منها الفخر الفردي، والأدبي، والسياسي، والدّيني و...إلـــخ.

كان الفخر في العصور الـــماضية كثيراً للغاية، وذلک بسبب كثرة دواعيه: من النوازع النفسيّة، والافتخار بالـــحسب والنسب، والتفاخر بالقوم والقبيلة. ولكن كلّما تقدّم الزمان من العصر الـــجاهليّ إلى العصر الإسلامي ومن العصر الأموي إلى العصر العبّاسي، أصبح حجمه طفيفاً ضئيلاً. فقد تقلّصت هذه الظاهرة في العصرالـــمملوكي، وأصبح معبِّراً عن ذات الشّاعر وهمومه، وراج نوع خاصّ من الفخر الذاتي سَمِّي الفخر الأدبي. كان جمال الدّين ابن نباتة الـــمصري من فحول شعراء هذا العصر، فقد تناول في شعره إلى جانب بقيّة الفنون الشعريّة موضوع الفخر دون أن يختصّ به باباً خاصّاً، حيث تطرّق إليه في خاتمة مدائحه ومقطوعاته الشِّعرية. ويدور معظم فخرياته حول الفخر الأدبي، فيفتخر بشعره وقريضه كما يفتخر بشاعريّته ومواهبه الشعريّة. يهدف هذا البحث بالاستفادة من الـــمنهج الوصفي_التحليلي إلى دراسة صورة الفخر الأدبي في شعر ابن نباتة الـــمصري. فيصل الباحث مستفيداً من هذا الـــمنهج إلى بعض النتائج: فالشاعر لم يترک موضوعا من مواضيع مدحه للكبراء إلّا أشاد بشعره، وقارن بين نفسه وبينهم، وكان من أكثر شعراء عصره اعتزازً بـــمآثره الأدبية، فَيفضِّل نفسه على أساطين الشعر العربي في العصور الـــمنصرمة كحسّان والبحتري وأبي تمّام.

الكلمات الدليلية: الفخر، الفخر الأدبي، النرجسيّة، ابن نباتة.

---

* البريد الإلكتروني للكاتب المسؤول: h.khakpoor@ut.ac.ir

المقدّمة

إنَّ الفخر من فنون الشّعر الغنائي يتغنَّى فيه الشّاعر بخلاله أو بخلال قومه، مؤكّدا على رفعة الحسب، والنسب، والكرم، والشجاعة، ومكارم الأخلاق انطلاقاً من حبِّ الذات كنزعةٍ إنسانية طبيعية. و لم يكن الفخر هدفاً بحدِّ ذاته، لكنّه كان وسيلةً لرسم صورة عن النَّفس؛ لِيخافها الأعداء، فتجعلهم يتردَّدون طويلاً قبل التّعرض للشّاعر أو لقبيلته، إذن الفخر كان له أكثر من معنى، وأكثر من دور، وله التصاق شديد بالذّات الإنساني، حيث إنّ الإنسان بطبيعته يحبّ ذاته، ويتأمّل في نفسه، ويقارن بينه وبين غيره من النّاس، لكنّه عادة لا يرى عيوبه، بينما يرى عيوب الآخرين كلّها، ومهما كان صادقاً مع نفسه، يتغلّب عليه الغرور؛ فيؤمن بأنّه أفضل بكثير من غيره (سراج الدّين، د.ت: ٥).

وكان الفخر من الفنون الأدبيّة الشائعة في الأدب العربي، فقد تطّرق إليه معظم الشّعراء في العصور المختلفة من تاريخ الأدب العربي. وكان هذا النوع من الشعر في العصور الماضية كثيراً للغاية، وذلک بسبب كثرة دواعيه من النوازع النفسيّة، والافتخار بالحسب والنسب، والتفاخر بالقوم والقبيلة. ولكن كلّما تقدّم الزمان من العصر الجاهليّ إلى العصر الإسلامي ومن العصر الأموي إلى العصر العبّاسي، أصبح حجمه طفيفاً ضئيلاً.

وقد تقلّصت هذه الظاهرة في العصرالمملوكي، ولكن لا يمكن أن يقال إنّ هذا النوع من الشعر قد انتهى من قاموس أغراض الشّعر في العصر المملوكي، لأنّ هذا الفن قد بقي معبّراً عن ذات الشّاعر وهمومه، لكن بقيم جديدة حلّت مكان القيم القديمة، القيم الّتي تناسب العصر و تواكبُ سير الزمن ومستجدّات الأمور في هذا العصر. فَمِن شعراء هذا العصر الذين تطرّقوا إلى الفخر في شعرهم جمال الدّين ابن نباتة المصري، وهو لم يخصّص له باباً خاصّاً، بل تطرّق إليه في خاتمة مدائحه ومقطوعاته الشّعرية. تدور معظم فخرياته حول الفخر الأدبي، فيفتخر بشعره وقريضه كما يفتخر بشاعريّته و مواهبه الشعريّة.

الدراسات السابقة

في ما يتعلق بموضوع البحث لم نجد دراسة مستقلّة بهذا العنوان، لكن هناك دراسات ذات صلة بالموضوع، منها ما يتعلّق بحياة ابن نباتة وشعره ومنها ما يتعلّق بفن الفخر عند بعض الشعراء.

وأمّا فيما يتعلّق بحياة ابن نباتة الأدبية وشعره فتحدّث أبو الـحسن أمين مقدسي (١٣٧٩) في مقاله «مقدمة على شعر ابن نباتة» عن الاقتباس والتقليد، والاصطلاحات النحويّة والبلاغيّة والعروضيّة في شعر ابن نباته. وأشار نفس الكاتب(١٣٧٩) في مقال آخر تحت عنوان «أثر القرآن في شعر ابن نباتة» إلى الاقتباسات القرآنيّة في شعره. وتطرّق حامد صدقي و رحمت الله حيدري منش (١٣٩٠) في مقالهما «الـخصائص الفنّيّة لشعر ابن نباتة الشاكي» إلى بعض الـخصائص الفنيّة في شعر ابن نباتة منها الـمعجم الشعري، والتراكيب، والأسلوب، والـمعجم الإيقاعي. و درس سيد محمد أميري (١٣٩٠) في مقاله تحت عنوان «التصوير الفنّي الباهت للتراث في شعر ابن نباتة خاصة مدائحه النبويّة» تقليد ابن نباتة للشعراء السابقين من الـجاهليّين والإسلاميّين والعباسيّين، كما درس فن البديعيّات عنده واستفادته من بعض التصاوير الفنّيّة والـمحسّنات البديعيّة.

و أما فيما يتعلّق بفنّ الفخر فقام خليل پرويني و تورج زيني وند (١٣٨٣) في مقالهما «الفخر في شعر الـمتنبي و الـخاقاني» بدراسة مقارنة لفن الفخر في شعر الـمتنبي و الـخاقاني. ودرس فيروز حريرچي و زملاؤه (١٣٩٠) في مقال تحت عنوان «صورة الفخر في شعر أبي فراس الـحمداني» فنّ الفخر في شعر أبي فراس وتحدّثوا عن أنواع الفخر، و مراحله، و عوامله و موضوعاته، كما تحدّثوا عن الـخصائص العامّة لفخريات أبي فراس الـحمداني.

الفخر و أنواعه

«الفخر لغة بـمعنى التمدّح بالـخصال وعدّ القيم. وقد يأتي الفخر بمعنى ادّعاء العِظَم والكبر والشرف. وبهذا الـمعنى جاء في الـحديث النبوي: أنا سيّدُ ولد آدم و لا فخر، أي: لا أقوله تبجّحاً، ولكن شكراً لله و محدّثاً بنعمه». (ابن منظور، ١٤١٤: ٥/٤٨)

وأما في الاصطلاح فقد جعله أبو هلال العسكري داخلا في فن الـمديح، واستدلّ على ذلک بـ«أن الفخر هو مدحک نفسک بالطهارة، والعفاف، والـحلم، والعلم، والـحسب، وما يـجري مـجرى ذلک». (العسكري، ١٤١٩: ١٣١) وأكّد على نفس الـمعنى ابن رشيق القيرواني، وجعله نوعا من الـمديح، وقال: «والافتخار هو الـمدح بعينه، إلاّ أنّ الشاعر يخصّ به نفسه وقومه». (القيرواني، ٢٠٠١: ٢/٩٢) ولكن مصطفى صادق الرافعي لا يقبل هذا

الرأي، ولا يعتبر الفخر مديحا، بل يجعله وسيلة لإحياء التاريخ المملوء بالفضيلة، فيقول: «فحقيقة الفخر إذن ليست مدحاً كما قيل، و لكنّها تأريخ، وسواء في معنى التأريخ فضيلة الفرد وفضيلة الجماعة... وعلى هذا التأويل نرى الفخر فطرة في العرب، فلا يكاد السيّد منهم يأتي عملا إلاّ تناوله شاعر قبيلته وفخر به، لأنّه لسان القبيلة ومؤرّخ أحسابها، و إذا فخر أحدهم بفضيلة في نفسه كالشجاعة أو الكرم أو غيرهما، فإنما يكون ذلک في معرض التذكير بهذه الفضيلة واستشهاد التاريخ الحيّ عليها، أو يكون توطيناً لنفسه وتحميساً لها بما يهيج عن كبريائها». (الرافعي، ٢٠٠٠: ٣/٧٨)

و مما تقدّم نصل إلى أنّ الفخر هو أن يمدح الشاعر نفسه أو قومه وعشيرته بالخصال الكريمة والخلال الحميدة، ورفعة الحسب والنسب، والشجاعة، وكرم المحتد، ومكارم الأخلاق، وذكر الأيّام. وبذلک نستطيع أن ندرک نوع العلاقة بين الفخر والمديح. إذن للفخر علاقة وثيقة بالجانب الذاتيّ في الإنسان، «فهو صدى تطلّع النّفس إلى ذاتها، والتعبير عن الأثرة أشدّ النزعات فيها. والإنسان، كما لا يخفى، سجين ذاته منذ الولادة، يديم النظر في مرآتها، مستجلياً محاسنها، صابغاً قبائحها بما يجعلها في ميزانه دون قبائح النّاس أجمعين، مقارناً فيما بينها وبين غيرها؛ وهذا الإيثار للنّفس، إذا تجسّم في عبارات شعرية، كان الفخر». (الفاخوري، د.ت: ٥).

وقد يصل الفخر إلى حد العجب، والكبر، والتعاظم على الآخرين. والفخر بهذا المعنى أمر مرفوض قد نهى عنه الإسلام، فقال تعالى: «إنّ الله لا يُحبُّ كلَّ مُختالٍ فخورٍ». (لقمان/١٨)

وللفخر أنواع مختلفة ذكر منها حنّا الفاخوري أربعة أقسام، فهى: الفخر الذاتي، والفخر الحزبي و السياسي، و الفخر الدينيّ، والفخر الحربيّ (الفاخوري، د.ت: ٥). ويمكن أن نضيف إلى هذه الأقسام الأربعة نوعا خامساً وهو الفخر الأدبي.

وأما الفخر الذاتي فهو ما دار حول العقل والقلب واللّسان والساعد، وما دار حول القبيلة والآباء والأجداد. والفخر الحزبي فهو لسان الحزب ينطق بحقوقه وطموحه، وينشر تعاليمه وآراءه، ويهدف إلى الامتداد والاستيلاء. قد ازدهر هذا النوع من الفخر منذ فجر الإسلام، وعلا نجمه في العهد الأموي، فذلک لقيام الأحزاب المتناحرة من أمويين وعلويين وزبيريين وخوارج وغيرهم. وأما الفخر الديني فهو ما دار حول الدين ومعتقداته وأحكامه

وقيمه الأخلاقيّة. فظهر الفخر الديني مع ظهور الإسلام، ورافقه في عصوره الـــمختلفة. والفخر الـــحربي فهو شعر الـــحماسة، ونشأ مع العربي منذ كان، ومنذ ارتمى في أحضان طبيعة قاسية جعلته غرضاً لأحداث الزمان، ونكبات الـــحدثان؛ وقد فطر العربي لذلک على الشّجاعة والقتال، وأصبح القتال جزءاً من حياته الطبيعية. (الـــمصدر نفسه: ٥-٦).

و الفخر الأدبي هو أن يفتخر الشاعر بشعره و شاعريّته و مواهبه الشعريّة، لأن الشعر «مأثرة من الـــمآثر و فضيلة من الفضائل التي بـــها اعتدّ العربي وافتخر إلى جانب السيف والـــجواد والـــخصال الـــحميدة». (يوسف، ٢٠٠٣: ٣٦٣)

ابن نباتة الـــمصري و مكانته الأدبيّة

ولد جمال الدين محمد بن محمد الـــمعروف بـــ«ابن نباتة الـــمصري» في الفسطاط بمصر سنة ٦٨٦هـــ، وهو من سلالة ابن نباتة الـــخطيب عبد الرحيم، خطيب سيف الدولة الـــحمداني، وكان والده شمس الدين ابن نباتة عالـــماً أديباً وشاعراً وراوية للحديث. وهكذا ولد الشاعر في بيئة علميّة جليلة، ونشأ في بيت معرفة وعلم وأدب مما أثّر على حياته العلميّة ومكانته الأدبيّة. (الـــخفاجي، ١٩٩٠: ١١٥)

درس ابن نباتة الـــحديث والفقه والأدب على أشهر أعلام مصر في عصره، ومن بينهم: العالم الكبير «ابن دقيق العيد»، و«بهاءالدين بن نحّاس النحوي». (فروخ، ١٩٨٩: ٧٩٤/٣)

«اتصل ابن نباته بآل فضل الله في مصر، وهي أسرة كان عدد من أبنائها يتولّون الكتابة للأيّوبيّين في مصر والشام، ولكن لم يهتمّ به الأيّوبيّون في مصر؛ ولذلک غادر مصر سنة ٧١٦هـــ، وتوجّه إلى بلاد الشام واتّصل بالـــملک الـــمؤيّد إسماعيل أبي الفداء صاحب حماة، فحظي عنده، وكان يـــمدحه ويؤلّف له الكتب إلى أن توفّي أبو الفداء سنة ٧٣٢ق، فاتصل بابنه الـــملک الأفضل. وفي سنة ٧٦١هـــ عاد ابن نباتة إلى القاهرة وتوفّي فيها سنة ٧٦٨هـــ.» (الـــمصدر نفسه: ٧٩٤/٣-٧٩٥).

«و بدأ ابن نباتة نظم الشعر مبكّراً، وما لبث أن علا نجمه في الشعر والأدب، وكان يتردّد على مراكز العلم والأدب في مصر وبلاد الشام، وكان لهذا التردّد أثر كبير في اتساع مدى فكره الأدبي وذوقه الشعري حتى أصبح من كبار شعراء عصره، بحيث اعتبره الشوكاني أشعر الـــمتأخّرين علي الإطلاق»، (الشوكاني، د.ت: ٢٥٣/٢) وقال عنه السُّبْكي: «هوحامل لواء

الشعراء في زمانه، وما رأينا أشعر منه ولا أحسن نثراً ولا أبدع خطاً. له فنون ثلاث، لم نر من لحقه ولا قاربه فيها: سبق الناس إلى حسن النظم فما لحقه لاحق في شيء منه، وإلى أنواع النثر فما قاربه مقارب إلى ذروة منه، وإلى براعة الخط فما قدر معارض على أن يحكي له خطاً أو يجاريه في أصول كتابته». (السبكي، ١٤١٣: ٣٧٣/٩)

وتطرّق ابن نباتة في شعره إلى موضوعات مختلفة منها المديح، والرثاء، والنسيب والغزل، والخمريات والغنائيات بالإضافة إلى الموشّحات التي شملت أكثر من غرض واحد (باشا، ١٩٩٩: ٣٥٤).

«و يمتاز شعره بالرّقّة، وحسن التورية، والاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشّريف، ثمّ بالاتّكاء على مصطلحات أصحاب النّحو والعروض والفقه والتّصوّف والفلسفة مع نظرٍ إلى مصطلحات الشّيعة. وهو في ذلک يُكثِر من الصّناعة حتى يصبح جانب من شعره رمزاً». (فرّوخ ،١٩٨٩: ٣/٧٩٥- ٧٩٦)

«ولابن نباتة إلى جانب شعره نثر فنّيّ بليغ، سلک فيه منهج القاضي الفاضل في تكلّف الصنائع البديعيّة مع تخيّره للسهولة وبعده عن التعقيد والغرابة». (الخفاجي، ١٩٩٠: ١٣٣)

صورة الفخر الأَدبي عند ابن نباتة المصري

كان الشّاعر المملوكي يفتخر بشعره ومواهبه الشعرية، كما كان يفتخر بنفسه وفضله وعلمه وعلوّ همّته وفكره. ومن تقاليد الشّعراء في هذا العصر أنّ الشاعر عند ما كان يجمع شعره في ديوان كان يقدّم بين يديه بأبيات يمدحه فيها، ويفتخر بشاعريته. فَمِن زمرة هؤلاء الشُعراء ابن نباتة المصري الذي كان يزهو بأنّ ديوان شعره رقيق النّظم، مستعذب اللّفظ، لا يحطّ من شأنه قلّته، ويشبّه ألفاظ شعره بالماء الزلال الذي يخرج من الصخور، ويلقّب شعره بالفلک الأثيري لرفعة شأنه وسموّه فيقول:

ولي لفظٌ رقيق الوِرد جزل كما نبع الزلال من الصُّخور
سما شعري و عاد على علاهم فلقّبناه بالفلک الأثيري

(ابن نباتة، د.ت: ٢١٤)

افتخاره بشعره ومواهبه الشعرية

نشأ ابن نباتة في بيت ثريّ، وأسرة ذات الـجاه والنفوذ، وفي ظلّ أب عطوف حنون، أب ذاع صيته في العلم والفضل والأدب آنذاک، وترعرع في بيئة يتنافس الشعراء فيها للزّعامة وقبول الآخرين وإعجابهم، فيفتخر بأبيه وأسرته فخوراً قائلا:

لـي حينَ أنسب أسرَةٌ عربيةٌ كانت تُعَدُّ الشُهبُ مِن أَحلافـي

(ابن نباتة،د.ت: ٣٢٣)

وفي مكان آخر يفتخر بأسرته، ويعتبر نفسه وريث اللفظ من أسلافه وأهل بيته، و يقول: إنّ حلاوة لفظه ورشاقته ترجع إلى ما ورثه من آبائه وأجداده فيقول:

ورثتُ اللَّفظَ عن سلفي وأكرِم بـآلِ نُباتة الغُـرِّ الـسـراةِ
فلا عَجَبٌ للفظي حينَ يـحلُو فهذا القطرُ من ذاکَ النّباتِ

(الـمصدر نفسه: ٨٠)

كان ابن نباتة يعرف مواهبه القوية في الشعر، ويدرک تفوّقه الشديد على شعراء عصره، ومن ثمّ كان كثير الزهوّ بنفسه، كثير الإعجاب بشعره وشاعريته ومواهبه في القريض. (الـخفاجي،١٩٩٠: ١١٩) فيقول مرحّباً بنظمه:

مرحبـاً بالنّظم يأتـي نفحةً مـن بعـد نفحه
من بيـاضٍ باكرتـها سحـراً بـالسّفح سفحه
ولآل نـظـمـتها بـركـات ضمن سبحه
و عروس جعلت لـي مـن بياض الوصل صبحه
كنتُ في الشّعر جواداً يـحـرز السّبـق بلمحه

(ابن نباتة، د.ت: ١١٤)

فهو يرحّب بـهذا النّظم يأتيه كنفحات العطر نفحة إثر نفحة، وما أبدع هذه الصّورة الّتي تجلّت لنا في حديثه عن البركات الّتي نظمت في سبحتها هذه اللآلي اللاّمعة. فهي مغرقة في رمزيتها وإيـحائها. أما هذه العروس فصورةٌ رمزيةٌ في هذه الأبيات، إذ يتحدّث عنها وكأنّها ليست قصيدة، بل هي عروس مـجلوة جعلت له من بياض الوصل صبحه. إنّ الشّاعر جواد بشعره، تفيض قريحته بأجمل الـمعاني، وهو باستطاعته أن يحرز السّبق بطرفة عين ولـمحة. (باشا، ١٩٩٩: ٣٨٨)

إنّ ابن نباتة مشهور بين أبناء عصره بالرقّة والدقّة، والعذوبة، والحلاوة، وهذه النّعوت الأربعة هي ما اصطلح على تسميتها بالانسجام النّباتي، لكنّ الشّوكاتي استحسن أن يقرن الرقةَ بالانسجام، وقد جاء ذلک خلال ترجمته للبشتكي جامع ديوان ابن نباتة في قوله: وأخذ الأدب عن ابن نباتة، وقال الشّعر الحسن، فكاد يحكيه في الرّقة والانسجام (باشا،١٩٩٩: ٣٨٣). وقد أشار الشاعر إلى هذه الرقّة وإلى هذا الانسجام قائلاً:

كانت للفظي رقّةٌ ضنَّ الزّمانُ بما استَحَقَّت
فصَرفتُها عَن قدرتي وقطعتُها مِن حيثُ رقّت

(ابن نباتة، د.ت: ٨١)

كان ابن نباتة زعيم الشعر والشعراء في عصره فسمّي «أمير شعراء الشّرق» اعترافاً بفضله وشاعريّته، وكان يعرف مكانته الشّعرية هذه، ولكن مع ذلک لم يكن حظّه من الدنيا كثيراً، ولذلک نراه يشكو من سوء حظّه، ويئنُّ من خيبة آماله متأكّداً في الوقت نفسه على ثروته اللّفظية، ويتعجّب من الفارق الكبير بين ثروة لفظه وافتقار يده فيقول:

لاعارَ في أدبي إن لَم ينل رُتَباً وإنّما العارُ في دهري وفي بلَدي
هذا كلامي وذا حَظّي فيا عجَباً مِنّي لِثروة لفظٍ و افتقار يدِ

(المصدر نفسه: ١٢٥)

يستخدم ابن نباتة في كثير من الأحيان التّشابيه الرائعة ليجعلنا آمنين بما له من العبقرية والقوة الشاملة في التقريض وإنشاد الشعر فنراه يشبّه شعره بالدّر، والسّكر، والنبات فيقول في تاجية:

لي من أدمعي ولفظي دُرّ حسَنُ الاتّساق و الازدواج
تلک منثورةٌ على حُلّةِ الحسن و هذا منظّم في التّاج

(المصدر نفسه: ٨٧)

وفي قصيدة أخرى يعتبر نظمه أحسن من الدرّ وأبيات شعره أرقى من القصر فيقول في قصيدةٍ له في الملک الأفضل:

فما الدُّرُ إلاّ دونَ نَظمٍ أنُصُّه وما القصرُ إلاّ دونَ بيتٍ أُشيدهُ

(المصدر نفسه: ١٣٩)

وفي موضع آخر يشبّه مديحه لابن فضل الله العمري بـــحداء يتغنّى به الـــمسافرون طوال رحلتهم، فلا يصيبهم الـــملل ولا التعب. ثم يخاطب ممدوحه ذا الـــخصال الـــحميدة ويقول له: أنت الذي أنطقتني ببدائع مثيرة تثير حفيظة الـــمنافسين، وتجعلهم خائبين فيقول:

يغنيّ بـــمدحي فيک حـــادٍ وسامرٌ — **فطابت عليه رحلـــةٌ و إيابُ**
وأنت الّـــذي أنطقْتَني ببدائع — **بغيظ أناسٍ قـــد ظفرتُ وخابوا**
فما النظم إلاّ مـــا أحَرِّرُ فاتِنٌ — **وما البيت الّا مـــا سكنت يبابُ**
إليک النُّهى قولـــي لـــمن قال مُلجمٌ — **وخفّ له فـــي الـــخافقين ركابُ**

(الـــمصدر نفسه: ٣٠)

إظهار فضله وتفوّقه علي بعض فحول الشعراء

لايفتخر ابن نباته بشعره فحسب، بل يفضّل شعره ومواهبه الشعرية بعض الأحيان على شعر فحول الشعراء قبله. ففي قصيدة في مدح الـــملک الأفضل يَدّعي أن مدائحه فيه أحسن مما أنشده الـــمتنبّي في مدح سيف الدولة وأنّ ألفاظ مديحه أرقى من ألفاظ شيخ الـــمعرّة أبي العلاء الـــمعرّي فيقول:

أصُوغ لـــه مدائحَ لـــم يصُغها — **على سيف العُلى نَجل الـــحسينِ**
و أطلِـــقُ فيـــه ألفاظاً تسامَت — **عَلى ألفاظِ رهـــنِ الـــمَحبسين**

(الـــمصدر نفسه: ٤٩١)

يقول: ما صنعتُ من الـــمدائحِ لمدوحي، لم يصُغها الـــمُتنبي لسيف الدّولة، فإنّ مدائحي أعظم وأفضل من مدائحه، وإنّ ألفاظي أفضل من ألفاظ أبي العلاء الـــمعرّي.

وفي رائيّته الـــمعروفة في مدح النبيّ (ص) يدخل في سوق الـــمنافسة مع كبار الشعراء في عصور الازدهار للشعر العربي، ويفضّل شعره على شعر أبي تمام الطائيّ والبحتري، ويدّعي أنّ قصيدته التي أنشدها في مدح النبيّ (ص) تباهي شعر بقيّة الشعراء فيقول:

ونظّمتُ شعري فيک تُزهى قصيدةٌ — **على كُلِّ ذي بيتٍ منَ الشِّعر يَعمُرُ**
مُعَظَّمةُ الـــمعنى يكـــرَّرُ لفظُها — **فيحلو نباتـــيُّ الكلامِ الـــمكرَّرُ**
دنَت من صفاتِ الفضلِ منک وإنّها — **لَتفضُلُ مـــا قالَته طيٌّ وبُحتُرُ**

(الـــمصدر نفسه: ١٨٣)

وفي قصيدة أخرى يضع نفسه في عداد فحول شعراء الأندلس، ويدّعي أنّ شعره يذكّر الناس بشعر معتمد بن عبّاد وابن زيدون حيث يقول:

مَن مُبلِغُ العُربِ عن شعري ودولتِه ... أنَّ ابنَ عَبّاد باقٍ و ابنَ زيدونا
حبـــرتُها فيه زهراء الـــمعاطف من ... أعلى وأنفسِ ما يهدي الـــمُجيدونا
إذا رأيتَ قوافيها و طلعْتَـــها ... فقد رأت مقلتاک البحـــرَ والنّونا
كأنّ ألفاظَها فـــي ســـمعِ حُسَّدها ... كواكبُ الرَّجمِ يـــحرقن الشَّياطينا

(الـــمصدر نفسه: ٥٠٥)

وهو يقول: إنّ من سمع شعره عرف أنّ الأندلس لم تنس، فلا تزال حية نضرة، ولايزال شعراؤها العظام في الذاكرة من أمثال الـــمعتمد ابن عبّاد أمير إشبيلية وشاعره الوجداني ابن زيدون. وقد وُرِّى بالبحر والنّون، حيث يريد بهما بحر الشّعر ونون القافية في القصيدة لا الـــحوت، و يسمّي حسّاده باسم الشّياطين، ويعتبر ألفاظ شعره شهباً ثاقبة تسقط عليهم وتـــحرقهم، فتجعلهم رماداً تذروه الرّياح.

دولةُ الشِّعر

درج بعض شعراء الـــمماليک على مسايرة السّلطان ومواكبته في الـــمناسبات والـــمواسم وغيرها، لكن البعض الآخر تجاوز ذلک إلى ما هو أبعد من الـــمواكبة؛ فبنوا لأنفسهم، وفي معظم قصائدهم، و لاسيّما الـــمدحية، هيكلاً أطلق عليه اسم "دولة الشّعر"، وهي كناية عن مشاعر تَفَوُّقٍ وتـــمايزٍ، دَفَعَتْهم إلى نوع من الفخر الذّاتي في مضماري الشّعر والقريحة الشّعرية الّتي تدفع بالكلام الشّعري. ومن هؤلاء الشّعراء ابن نباتة الـــمصري الّذي لا يتردّد، وهو في حضرة الـــمديح السّلطاني الـــمؤَيدي عن الإشادة بشعره و قصيدته، (الأيوبي، ١٩٩٥: ٢٧٤) فيقول:

وإنّي إذا أجهدتُ مدحي فإنّما ... قُصارايَ منها أن أقولَ فأخجلا
لبابک يا ابنَ الأكرمينَ بعثتُها ... أوانسَ من مدحٍ عن الغيرِ جُفّلا
وأرسلتُها غرّاءَ كالغُصنِ يانعاً ... وزَهرِ الرُّبا ريّان، والرّيحِ سَلسَلا

...

شببتُ لها فكري وفاحَت حروفُها ... كأني قد دخَّنتُ في الطرس مَندلا

...

وكم مثلِها أهديتُها طي مدرجٍ تكاد لفرطِ الشَّوق أن تتسَلَّلا
يفوه بـــها الراوي فيملأ لفظها فمَ الـــخلِّ درّاً أو فمَ الضدّ جندلاً

(ابن نباتة، د.ت: ٥٥٠-٥٥١)

وهناک مفاخر کثيرة لابن نباتة جعلها في خواتم شعره، ولاسيّما في مدائحه الّتي هيمنت على موضوعات ديوانه، ففي إحدى مدائحه بعد أن عدّ محامد ممدوحه وفضائله تحدّث عن دولة شعره ودور ممدوحه في إنشاد مدائحه وشهرتها بين الناس حيث يقول:

وكـــم أنطقَتْ نُعْماهُ منّي مدائحاً سرى ذكـــرُها غرباً وشرقاً فأدْلَجا
وروّى نباتياً مـــنَ القول طالـــما سقاه أبـــوه الغيث نـــوا مُثجّجا
أبا الـــخير خُذها مِن ثَنائي كرائِماً أَبَت عَن سِوى أكفائها أن تَـــزَوّجا
أوانسَ أبـــكارٍ يـــحقّ لِحُسنِها على ساكنِ الأمصارِ أن يتبرّجا
تـــهبُّ لِلُقْياها الكرام من الـــحيا ويجري بذكراها الـــمطيُّ على الوجا

(الـــمصدر نفسه: ٩١)

رجع ابنُ نباتة في أواخر حياته إلى مسقط رأسه مصر، فأكثر من مدح الشّاعر الـــملک النّاصر حسن بن محمد بن قلاوون، لأنّه حقّق له حلم العودة إلى وطنه بعد غياب طويل، وأمّره على الشّعراء جميعاً، وأمر أن ينسخ ديوانه ويوزع في الـــمكاتب السّلطانية، (باشا، ١٩٩٩: ٣٥٠) وقد أشار الشّاعر إلي ذلک أكثر من مرّة:

و قَدَّمَتْنـــي على الأقرانِ ذو نِعَمٍ حتـــى جَدَعْتَ به أنفَ ابن جدعانِ
وقال قومٌ بـــما قد نِلتَ تقدمة فقلتُ مذ أمَّر السّلطانُ ديوانـــي

(ابن نباتة، د.ت: ٤٩٣)

كما أشار إلى هذه الإمارة الشّعرية له ولديوانه في مقطوعة صغيرة :

يا أيّها النّاصر السّلطان لا غمِضتْ عينُ لـــها من سنا مرآک سلوان
كم في ملوکِ الوَرى فضلٌ و معرفةٌ كانوا و مثلک في ذا النحوِ ما كانوا

...

أمَّرتَ شعرىَ يا خيرَ الـــملوكِ على   أشعارِ قومٍ فَلي أمرٌ و ديوان

(الـــمصدر نفسه: ٥١٩)

فقد عاصر ابن نباتة كثيراً من رجال العلم والأدب، فمدحهم كما مدح الـــحكام والأمراء والوزراء، ويتطرّق في ضمن مدائحه إلى شعره، ويفتخر به، فيقول مخاطباً قاضي قضاة الشام:

أمولاىَ خُـــذها ذاتَ نظمٍ موشّحٍ   على أوجـــهِ الأنداد ذاک رَداغُ
وما القـــولُ إلاّ كالورى متفاوتٌ   فمنـــه صهـــيلٌ أو فمنه تـــواغُ

(الـــمصدر نفسه: ٣٢١-٣٢٢)

فيدّعي أن هذه الأبيات التي أهداها إلى قاضي القضاة أبيات مزيّنة تبهج الأصدقاء و تفضح الأعداء، كما يدّعي أنّ شعره قد وصل إلى درجة من الـــحسن والـــجودة لايصل إليها شعر الآخرين، و ذلک لأنّ الكلام مـــختلف في الـــحسن و الـــجمال، كما أنّ الناس مـــختلفون في الـــخلقة والطبائع.

وعلى نفس الغرار ينشد في مدح السّلطان النّاصر الـــحسن مفتخراً بنظمه، وهو يُقارِنُ بين نظمه ونظم الآخرين، فيصف شعره بأنّه كالزهر يثير الإعجاب، ويصف شعر غيره بأنّه كالشوک، يؤذي الآخرين، ويدّعي أنّ نظمه مع قلّته له قيمة ومكانة عالية، وأنّ نظم الآخرين مع كثرته لايقضي مآرب الناس، ولا يُلبّي حاجاتهم، كما يدّعي أنّ الشعراء الآخرين قد كرّروا ألفاظه فيقول:

كم مثلها قلتُ في روض الشبابِ و كم   قد قال غيري فبان الزهرُ و الـــحسک
قَـــصَّرْتُ نَـــظْمِيَ إلـــاّ أنّـــه نُخَـــبٌ   وطـــوّلَ الـــنّـــاسُ إلاّ أنـــّهم لَبکـــوا
ومـــا تـــقَضَّت لبانـــاتٌ لطـــائـــفةٍ   قالَتْ حلاوةُ ألفاظي لقـــد علكوا

(الـــمصدرنفسه: ٣٦٣)

و في قصيدته الرائيّة التي يمدح فيها الـــملک الـــمؤيّد، يشيد بمدائحه، ويعتبر نفسه الشاعر الذي يجدر بالـــملک أن يستمع إلى مدائحه، بينما يعتبر الآخرين «شُعرورا» أي شعراء سخيفي النظم لا يـــجدر الاستماع إلى أشعارهم فيقول:

فانعم بـــه وبـــأمداحٍ مُشعشعةٍ   مديرُها فـــي صباح الفطر مبـــرور

نفّاحةُ الـمسكِ من مسودّ أحرُفِها ما كان يبلغُها في مصر كافور
بعض الورى شاعرٌ فاسمع مدائحه و بعضُهم مثلما قد قيلَ شُعرور

(الـمصدر نفسه: ١٨٦)

و في موضع آخر يفتخر بـمدحته، وينادي ممدوحه الـملك الـمؤيّد في ختام القصيدة، وهو يشبّه مديـحه في حقّه بالعروس الّتي تنتمي إلى مصر، فيكبّر شغفاً لـما صنع للملك حيث يشيرُ:

يا ابنَ الـمُلوكِ الأولى خُذها عروسَ ثناً مصريّةَ الـمُنتَمى غربيّةَ النَّفَسِ
الله أكبـرُ صاغَ الـحقّ مادحكـم كأنّـه ناطـقٌ عـن حضرة القُدُسِ

(الـمصدرنفسه: ٢٦٤)

وفي قصيدة يـمدح فيها كمال الدين الزَملكاني يقلّل من شأن الشعراء الذين مدحوه، ويخاطب الـممدوح ويقول له: لايليق مجدك وعظمتك الاّ مدائحي، لأنّ معانيهم السخيفة، جريـمة في حقّك يكفيهم الإنصات منك، فالفضل منك متوقّع وحقّ الفضل إكرام نظمي ورفض نظم الآخرين. ثمّ يشبّه نظمه بالعروس الـمجلوة التي يركع أمامه نظم الناظمين في أبياتٍ تالية:

يـزاحـمون بأشـعارٍ ملفّـقةٍ كأنّها بين أهل الشعر حشواتُ
أعيذُ مـجدَك مـن ألفاظِهم فلها جني كـأنّ معانيـهم جِنـاياتُ
لا يغـرهم بندى يأتيهم فكفى مدحاً بأن يأتـي منـك إنـصاتُ
إن لـم تُفرّق بفضلٍ بيـن نظمهم وبين نظمي فما للفضل لـذّاتُ
حاشاك أن تتساوى في جنابك مِن قصائد الشعـر سوآتٌ وجبـهاتُ
خُـذها عروساً لـها في كلّ جارحة لـواحـظٌ و كـؤوسٌ بابـلياتُ
أورَدْتَ سؤددَك الأعلى مواردَها وللـسُّها فـي بـحار الأفق عبّاتُ
شـمّاءُ يركع نظمُ الناظمين لـها كأنّـما ألـفاظُ الـخطّ دالاتُ

(الـمصدر نفسه: ٧١)

وفي موضع آخر يجعل ابن نباتة نفسه مع الـممدوح في مستوى واحد، إذ يشبّه نفسه في الشعر والأدب ومـمدوحه في الفضل والـجود والسّماحة بالبحر، فيتفاخران بالشعر والأدب والـجود والسماحة:

وتاجاً على رأسِ السّيادةِ يـجتلي فينظم درّ الـمدح فيه وينثرُ
مزجنا بحورَ الفضل و الشّعرِ بيننا فها نـحن في هذا وذا نتبخترُ
لَعَمري لقد قلتُ الرّقيقَ لـمدحهِ و إنّ رقيقاً قلتُه لَمُـحَرَّرُ
(الـمصدر نفسه: ٢٢٧)

ظاهرة الأنا في شعره

لقد كان الشّعر وما يزال راصداً رؤيةَ الإنسان لنفسه وللأشياء من حوله مبيّناً علاقات الإنسان بما حوله، وتفاعله الـمستمَرّ مع الـحياة، وحواره مع شخوصها، باسطاً لنا عبر اللّغة آماله وآلامه وتطلّعاته بالكلمة الـمنغومة الـموحية. والشّعر لايقنع بواقعه، ولا يستسلم للقوانين الّتي تفرض عليه، وأكثر الـمبدعين لهم إنجازات تجاوزت قواعد الفنّ في عصرهم، لأنّ الفنّ حركة والنّقد تقعيد(فهمي ،١٩٨٦: ٢٠٥).

فظاهرة «الأنا» في الشعر هي أن يتناول الشاعر ذاته، ويمدح نفسه، ويبرز شخصيته مستخدما ضمير الـمتكلم بصوره الـمختلفة. تبرز هذه الظاهرة بصورة واضحة في فنّ الـمديح وخاصة في الـمديح الـمعكوس الّذي يتناول فيه الشّاعر ذاته مبلوراً عبقريته (الـمصدرنفسه، ٧٦)، وذلک لأنّ الفنّان معجب بنفسه ومفتون بعمله، ومعظم الفنّانين يريدون الأفضليةَ لأنفسهم دون غيرهم، وإن لم يعلنوا عنها، فهم ينتظرون كي يسمعوها من الآخرين، وقد بالغوا في وصفِ أشعارهم.(زرّين كوب،١٣٧١: ١٥١) وقد تجلّت هذه الظاهرة بصورة واضحة في مدائح ابن نباتة وفي بعض مقطوعاته الشعرية؛ ففي مقطوعة شعرية يدعي أنّ الأدباء قد أخذوا منه أدبهم وذكاءهم، ويقول مستخدما ضمير الـمتكلم:

عندي استفاد ذوو التّأدّبِ و الذّكا قولاً نباتياً رَعَوْا روضاتهِ
فأنا الـحقيق بقَوْلِ أحمدَ مَنْ إذا قَطَفَ الرّجالُ القَوْلَ عِنْدَ نباتِه
(ابن نباتة، د.ت : ٨١)

وفي سياق مدحه للملک الـمؤيد، صاحب حماة، يعتبر نفسه أحسن الناس شعراً، ويقارن بين مكارم الـممدوح وشعره، فيسمّي ممدوحه ربّ الـمكارم، ويسمّي نفسه ربّ القريض، فيقول مستخدما ضمير الـمتكلم و ضمير «أنا» بالذات:

تعلّمتُ أنـواعَ الكَلامِ بِرفـدهِ فأصبحتُ أعلى النّاسِ شِعراً وأحسنا

إذا قيل من ربُّ الـــمكارمِ في الوَرى أقُل هو، أو ربُّ القريض أقُل أنا

(الـــمصدرنفسه: ٤٨٩)

وله على نفس الغرار بعد إحصاء صفات الـــملک الـــمؤيد مفتخراً بشعره يشبّهه بالقصر قائلاً:

وجـــمّلتُ فيک الشّعرَ حتى نظمتُه فما البيتُ الّا مثلُ قصرٍ مُشَيَّدِ
وأخـــملتُ أربابَ القريضِ كأنّني أدرتُ على أســـماعِهم كأسَ مَرْقَدِ
فلازلتَ مـــخدومَ الـــمقام مُخلّداً ومن يكتسبْ هذا الثّناءَ يـــُخَلَّدِ
شكرتُک حتّى لـــم تدعْ لـــي لفظةً وكِدْتُ بأنْ أشْكُوک في كلّ مَشْهدِ
لأنّک قد أوهَنْتَ جُهدي باللّهُى وأنسَيْتَنـــي أهلي و أكثَرْتَ حُسّدِي

(الـــمصدر نفسه: ١٣١)

وهذا يعني أنّ الإنسان ضعيف، ويعلم أنّه ضعيف، وأنّ الإعجاب الّذي يمنحه للآخرين ليس سوى انعكاس لإحساسه الـــخفي، مهما حاول أن يغطّي هذا الإحساس بضروب من العظمة الشّكلية أو الوهمية، ولكن أليس في الصّراع الإنساني الأزلي مِن أجلِ الـــمنافسة أو التفوّقَ حتّى الوصول إلى النّظائر ما يدفع الإنسانيةَ كلّها إلى التقدّم بغضِّ النّظر عن حسد القاعدين؟ (فهمي، ١٩٨٦: ٧٦)

النتيجة

الفخر من فنون الشّعر الغنائي يتغنّى فيه الشّاعر بخصال نفسه أو بخلال قومه مؤكّدا على رفعة الـــحسب والنسب والكرم والشجاعة ومكارم الأخلاق انطلاقاً من حبِّ الذات كنـــزعة إنسانية طبيعية. وللفخر أنواع مختلفة منها الفخر الذاتي، و الفخر الـــحزبي و السياسي، و الفخر الدينيّ، والفخر الـــحربيّ، والفخر الأدبي. والفخر الأدبي هو أن يفتخر الشاعر بشعره وشاعريّته ومواهبه الشعريّة، فما توصلنا إليه من خلال بحثنا هو:

١. أنّ الفخر كان من الفنون الأدبيّة الشائعة في الأدب العربي في العصور الـــمختلفة. فقد تقلّصت هذه الظاهرة في العصرالـــمملوكي دون أن ينتهي من قاموس أغراض الشّعر في هذا العصر.

٢. من الشعراء الذين تطرّقوا إلى الفخر في شعرهم في هذا العصر جمال الدّين ابن نباتة الـــمصري، وهو لم يُخصّص له باباً ، بل تطرّق إليه في خاتمة مدائحه ومقطوعاته الشّعرية.

حيثُ يدور معظم فخرياته حول الفخر الأدبي، فيفتخر بشعره وقريضه كما يفتخر بشاعريّته و مواهبه الشعريّة.

٣. كان ابن نباته كثير الإعجاب بشعره، فنراه من خلال أشعاره فخوراً متخايلاً يفتخر بشعره، ويفضّله على شعر بعض فحول الشعراء في العصور الماضية، فَيستخدم في فخره الأدبي أسلوب دولة الشعر كما يستخدم ظاهرة «الأنا» في شعره كثيراً.

المصادر

ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب**، بيروت، دار صادر، الطبعة الثالثة، ١٤١٤.

ابن نباتة، جمال الدّين، **ديوان ابن نباتة**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.

أميري، سيّد محمد، «التصوير الفنّ الباهت للتراث في شعر ابن نباتة خاصة مدائحه النبويّة»، مجلة بحوث في اللغة العربية و آدابها، جامعة اصفهان، العدد٥، ١٣٩٠.

أمين مقدسي، أبو الحسن، «أثر القرآن على شعر ابن نباتة»، مجلة كليّة الآداب و العلوم الإنسانيّة، جامعة طهران، العدد٤١و٤٢، ١٣٧٩.

_____، «مقدّمة على شعر ابن نباتة»، مجلة كليّة الآداب و العلوم الإنسانيّة، جامعة طهران، العدد٤٣، ١٣٧٩.

الأيوبي، ياسين، **آفاق الشّعر العربي في العصر المملوكي**، طرابلس، جرّوس برس، الطّبعة الأولي، ١٩٩٥.

باشا، عمر موسي، **تاريخ الأدب العربي :العصر المملوكي**، دمشق، دارالفكر، ١٩٩٩.

پرويني، خليل، و زيني وند، تورج، «الفخر في شعر المتنبّي و الخاقاني»، مجلة كليّة الآداب و العلوم الإنسانيّة، جامعة فردوسي، مشهد، العدد٣٧، ١٣٨٣.

حريرچي، فيروز، و صدقي، حامد، و ملايي، علي أكبر، «صورة الفخر في شعر أبي فراس الحمداني»، مجلة الجمعيّة العلميّة الإيرانيّة للغة العربية و آدابها، جامعة تربيت مدرس، العدد ١٨، ١٣٩٠.

الخفاجي، عبدالمنعم، **الحياة الأدبية بعد سقوط بغداد حتى العصر الحديث**، بيروت، دارالجيل، الطّبعة الأولي، ١٩٩٠.

الرافعي، مصطفي صادق، **تاريخ آداب العرب**، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولي، ٢٠٠٠.

زرين كوب، عبدالحسين، **شعر بی دروغ، شعر بی نقاب**، تهران، انتشارات علمي، ١٣٧١.

السبكي، تاج الدين عبد الوهاب، **طبقات الشافعيّة الكبرى**، دار الهجر للطباعة و النشر و التوزيع، ١٤١٣.

سراج الدّين، محمّد، **الفخر في الشّعر العربي**، بيروت، دار الرتب الجامعية، د.ت.

الشوكاني، محمد بن علي، **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، بيروت، دار المعرفة، د.ت.

صدقي، حامد، وحيدري منش، رحمت الله، «الـــخصائص الفنّيّة لشعر ابن نباتة الشاكي»، مـــجلة إضاءات نقديّة، السنة الأولى، العدد الأول، ١٣٩٠.

العسكري، أبو هلال، **الصناعتين، الكتابة و الشعر**، بيروت، الـــمكتبة العصريّة، ١٤١٩.

الفاخوري، حنّا، **الفخر والـــحماسة**، القاهرة، دارالـــمعارف، الطبعة الثانية، د.ت.

فرّوخ، عمر، **تاريخ الأدب العربي من مطلع القرن الـــخامس الهجري إلي الفتح العثماني**، بيروت، دارالعلم للملايين، ١٩٨٩.

فهمي، ماهر حسن، **قضايا في الأدب والنّقد**، الدوحة، دار الثّقافة، ١٩٨٦.

القيرواني، ابن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر و آدابه**، بيروت، دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولي، ٢٠٠١.

يوسف، خالد ابراهيم، **الشعر العربي أيام الـــمماليک ومن عاصرهم من ذوي السّلطان**، بيروت، دار النهضة العربية، الطبعة الأولي، ٢٠٠٣.